نفسيات يحللها القرآن

للدكتور ابراهيم سلامة

ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ، ذلك هو الضلال البعيد . يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ، لبئس المولى ولبئس العشير » .(١)

يقول العلماء فى أسباب النزول ماروى عن «ابن عباس» رضى الله عنهما أنه قال : كان الرجل يقدم المدينة فيسلم ، فان ولدت امرأته غلاما ، ونتجت خيله ، قال هذا دين صالح ! وإن لم تلد امرأته غلاما ولم تنتج خيله ، قال : هذا دين سوء !

وروى عن ابن مسعود فى أسباب نزول هذه الآيات أيضا أنه قال : أسلم رجل من الناس فبعد إسلامه ذهب بصره وماله وولده ، فتشاءم بالإسلام وقال ، لم أصب من دينى هذا خيرا ذهب بصرى ومالى ! ومات ولدى ! فنزلت هذه الآيات المدنية .

ومجمل المعنى فى هذه الآيات : أن هناك أناسا قلقة نفوسهم ، مضطربة عقائدهم ، لأنها ليست خالصة لله ، ولا متجهة إلى سبيله ، يعبدون الله على

---

(١) من سورة الحج آية ١١ ، ١٢ ، ١٣

حرف ، أى فى شك وارتياب ، وفى غير ثبات أو طمأنينة ، فكأن صاحب هذا القلق واقف على حرف جبل ، أو على شفا حفرة ، لم يرسخ قلبه من الإيمان ، وإنما ابتل به شفتاه ، ولم يتوغل الإيمان فى أعماق قلبه ، وإنما لمس حافة نفسه ، مذبذب بين الايمان والجحود ، متردد بين التصديق والتكذيب ، إن أصابه خير اطمأن به وفرحت نفسه ، لأن ماله زاد ونتاجه أخصب ، وإن أصابته فتنة فى نفسه ، أو ابتلى فى ماله أو ولده ، انقلب على وجهه ، ورجع إلى سابق عهده من الكفر والضلال ، ولا هو أقام على عقيدته الأولى ، ولا هو أفاد من عقيدته الثانية ، ومآله خسران الأولى وخسران الثانية ، وخسران الدنيا وخسران الآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ، واضح المعالم بين النتائج .

وليس ببعيد عن هذا ماقيل فى تفسير الآية ، من أن الذى يعبد الله على حرف هو الذى يصدق بلسانه لا بوجدانه ، فدينه لفظ على حرف لسانه ، لامعنى فى قلبه ، يعطيك من طرف لسانه ماتشاء من آيات بينات ، ويدلل على قوة الايمان ، بقوة العبارة ، ومتانة الحجة ، حتى إذا ابتلى فى ماله وفى ولده ابتلى فى دينه أيضا ، فتجده حائرا مضطربا بين الشك واليقين ، إذا زلت به قدمه ، لايجد متكأ من صبر أو طمأنينة . وتلك خسارة فى الدين وخسارة فى الدنيا ، لاخسارة وراءها .

وكما يقع هؤلاء فى « الخسران المبين » يقعون أيضا فى « الضلال البعيد » لأنهم لما كانوا لايلتجئون إلى الله ، وإذا التجئوا إليه كان التجاء متهالكا متخاذلا ، فهم ويلجئون إلى غير الله ، ويدعون من دونه مالا يضرهم ولاينفعهم ، وذلك دليل آخر على ضعف العقل ، بعد ضعف الايمان ، لأن الملتجىء إلى مالا يضر ولاينفع أبدا ، أو إلى مالا يضر تركه ، ولاينفع قربه ، إنسان محروم من نعمة العقل ، لايفرق بين الضار والنافع ، ولا بين الخير والشر ، ولا بين الفضيلة والرذيلة . ذلك ضلال ليس بعده ضلال ،

وتلك حيرة ليس وراءها حيرة ، ذلك ضلال بعيد يتوغل بصاحبه فى شتى الاضطرابات ، كما تتوغل بالسارى الصحراء المهلكة فى الليلة المظلمة ، لتقوده إلى حتفه وهلاكه .

يحلل القرآن فى هذه الآيات نفسية أخرى ، هى الذين يلتجئون إلى الناس ، وإلى الذين يحسبون أنفسهم فى عداد العقلاء ، يوازنون بين الخير والشر ، وبين النافع والضار فيلتجىء الرجل إلى الرجل ، يظن أنه صاده ، وينسى الالتجاء الى الله فى سبيل الالتجاء الى الناس ، اذا تبين له خطأ فهمه وسوء تقديره ، وجد أن ضر هؤلاء أقرب من نفعهم ، وأن من اتخذه مولى من دون الله ، كان بئس المولى ، ومن اتخذه نصيرا وعشيرا ، كان بئس النصير وبئس العشير .

تلك نفسيات ثلاث يحللها القرآن :

الأولى : نفيسة طائشة متذبذبة ، لا ترضى ، إلا بالخير ، ولا ترى من الحياة إلا وجهها الباسم المقبول ، فاذا تنكرت — وهى لابد راجعة إلى طبيعتها من التنكر والتقلب — أنكر نفسه ، لا يطمئن إلى ابتلاء الله واختباره ، ويرضى عن دنياه إذا تقلبت به ، ويكرم دنياه فى سبيل إهانة فكرته وعقيدته ، فلا يدرك دينا ، ولا يفرك دنيا :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولاما نرقع

وكم من أناس يتنقلون بمبادئهم وبافكارهم بين الصفوف يساومون فى المبادئ والعقائد ، فاذا أصابوا فى الصف الجديد خيرا طمأنوا ، وإن لم يصيبوا انقلبوا ، فلا يبقون على فكرة ، ولا يحتفظون بكرامة .

الثانية : نفسية جاهلة ، يلجأ أصحابها إلى الخرافات والأوهام ، وتعيش على التفاؤل والتشاؤم ، فيدعون مالا ينفع ، ويخافون مالا يضر ، أو يدعون ما يعتقدون فيه النفع ، وهو أقرب ما يكون إلى الضر ، ومثل هذه النفوس

الجاهلة تعطل فى صاحبها العقل والارادة وملكة التقدير الصحيح ، وتذهب بصاحبها إلى أبعد مايكون فى الهلاك والضلال .

والثالثة : نفسية من يتكلون على غيرهم من الناس ، معتمدين فى كل تصرفاتهم على الوساطة والمحسوبية ، وجاه فلان وجاه فلان ، ومثل هؤلاء يتوسلون بمختلف الوسائل ، ويحقرون من إنسانيتهم أمام أنفسهم ، وأمام من يتوجهون إليهم ، ويتجهون فى الحياة اعتمادا على جاههم ، حتى إذا نسوا الله ، بصرهم بأن من يتكلون عليه لايملك لهم ضرا ولا نفعا ؛ بل كثيرا مايكون ضره أقرب من نفعه !

وأخيرا يشبه الله أمثال هؤلاء الذين ينتصرون بغير الله ، بمن يريد أن يصعد إلى السماء ، فيمد اليها الحبل ، ثم يعد فيه حتى ينقطع به الحبل ، ولاتنفعه الحيل التى اصطنعها ، فيموت غيظا وكمدا من أن محاولاته مخفقة ، واستعانته بغير الله ضائعة ، وكيده للناس مستعينا بالجاه والزلفى لأرباب الجاه ذاهب أيضا ، وصدق الذى يقول « من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » (١)

---

(١) سورة الحج ، آية ١٥ .